الطواف حول الطاولة: سفر السعوديين كحجّ بلا كعبة

29 أغسطس 2025

أدب وسخرية

5 دقيقة قراءة

www.saudieinstein.com

الطواف حول الطاولة: سفر السعوديين كحجّ بلا كعبة



روزنامة مكرّرة، مطاعم محفوظة، شوارع مرسومة، وديون تُحمل كجبال السروات... فيما إنستغرام وسناب يحوّلان الرحلة إلى مكانة اجتماعية جديدة

ثمة في الصيف السعودي ما يشبه الحج بلا كعبة: روزنامة سنوية مقدسة محفوظة عن ظهر قلب. باريس في مطلع يونيو، ماربيا في منتصف يوليو، لندن في أغسطس، وجنيف كالمحطة السويسرية التي لا يغيب عنها أحد. الكل يعرف متى يغادر وأين يجلس، والتغييرات لا تتعدى بضعة أسطر في عقد كامل. قال أحدهم: «عشر سنوات ما غيّرنا إلا سطرين أو ثلاثة، والباقي محفوظ». التكرار هنا طقس بحد ذاته.

الجـدول اليـومي مكتـوب سـلفاً: إفطـار فـي المقهـى المعتـاد، جولـة فـي المـول، غـداء فـي المطعم الثابت، جلسة مسائية في بورتو بانوس أو نايتسبريـدج، ثـم عشـاء فـي "نوفيكـوف" أو "زوما". المشهد محفوظ إلى حد أن الكراسي تعرف أصحابها.

في لندن، الطواف على هارودز وبوند ستريت وأوكسفورد ستريت صار أشبه بفرض طبقي لا يسقط بالتقادم. يلوح أنّ الشراء أقل أهمية من المرور. الحضور يكفي.

وفـي باريس لا يكتمـل المشهـد بلا الشانزليزيه ومطاعم لافينو ولولو ولو رولي دو لونتركوت. الصـورة بـاتت أقـدس مـن النكهـة، ومـا يُلتقـط بالعدسة أطول عمراً من أي طبق.

أما ماريا فنهارها في نيكي بيتش وليالها في أوليفيا فالير وبونتي رومانو؛ مدينة تحوّلت إلى شاشة مفتوحة أكثر منها شاطئاً. العرض هو الرسالة.

وجنيف كلها تختصر في شارع الرون؛ نسخة سويسرية من نايتسبريدج، حيث الحقائب والساعات تُعرَض أكثر مما تُشترى. لا حاجة للتملك، يكفي أن تكون في الصورة.

هذه الرزنامة تُدار بسلطة إلكترونية ثلاثية: سناب شات وواتساب وإنستغرام. في السناب، أهم الطقوس هو فتح اللوكيشن: لا تكفي الصورة، بل يجب أن يعرف الجميع أين جلست ومتى. الواتساب غرفة العمليات التي تُدار منها الجداول والخرائط وأسماء السائقين. أما

إنستغرام فيضع الختم الأخير بصورة مُنمقة تُعرض كإثبات وجاهة. الحضور لا يكتمل إلا حين يُوثق. فالفرد لا يخشى أن يغيب عن المكان بقدر ما يخشى أن يغيب عن عيون الآخرين

الطبقات بدورها تتوزع: (كان) للعموم الباحثين عن نصيبهم من المشهد. سانت روبيه قدّمت نفسها حصناً للنخبة القديمة، لكن إنستغرام كشفها في ثلاث سنوات؛ الأرصفة تحوّلت إلى مسرح مكتظ بالهواتف، وسقط سر النخبة بلقطة شاشة. أما الطبقة الأرقى قديماً فبقيت في سردينيا، حيث تتحول اليخوت إلى برلمان عائم؛ ولو أن البحر وحده يسمع تصفيقهم.

النخبة لا تعيش بلا جمهور، حتى لو كان البحر.

محدثو الرفاهية يطاردون الجدول كما يطارد

المبتـدئ مـدربه: يلتزمـون بالمحطـات بلا روح، ويثبتـون حضـورهم بـالصور و"التـرزز" والسوالـف التي يروونها عند العودة. أما الطبقة الوسطى فهي التي تتحمل الفاتورة الحقيقية: تستدين، وتشُـد بطاقـات الفيـزا كأنهـا حبـال مـن جبـال السروات، تثقلها وتخنقها، مقابل حضور عابر في نـادي الوجاهـة. الثمـن يُـدفع سـريعاً، أمـا الـدين فيبقى دهراً.

وفـي قلـب هـذا الطقـس، العلاقـات العـابرة والبحث عن الزواج جزء لا يتجزأ: نظرات في بورتو بـانوس، ابتسامـات فـي نايتسبريـدج، لقـاءات "مصادفـة" فـي الردهـات. بعضهـم يبحـث عـن علاقـة عـابرة لإثبـات ذاتـه، وبعضهـن عـن زواج ينقلهن من مقعد مؤقت إلى مقعد دائم في

النادي الاجتماعي. الزواج هنا امتداد للعرض. الأوروبيـون ينظـرون بدهشـة. يـرون موكبـاً سعودياً منظمًا كقطيع، يكرر الحركات نفسها، يلتقـط الصـور فـي الزاويـة ذاتهـا، ويغـادر فـي الموعـد ذاتـه. بالنسبة لهم، ما يُسمّى سياحة أقرب إلى طقوس دينية غامضة؛ جموع تتحرك بانتظام، تكرر ذات الحركات، كأنها تؤدي شعيرة لا يفهمونها.

وكمـا للصـيف رزنـامته المقدسـة، صـار للشتـاء طقوسه. الوجهة الأبرز كورشوفيل، حيث بذلات التزلـج أغلـى مـن مهـارة التزلـج نفسـها. وهنـاك طبقـة أخـرى تتـوهم العلـو فتلجـأ إلـى غشتـاد، القرية الهادئة التي جعلت الصمت نفسه معيار وجاهـة؛ يهربـون مـن الزحـام ليُثبتـوا أنهـم أعلـى

منه. الصمت صار سلعة.

وفي المقابل، أسلافنا ابن بطوطة وحمد الجاسر شدّوا الرحال لاكتشاف المجهول؛ أما السعودي المعاصر فيشد الرحال ليجلس في نفس الزاوية، أمام نفس الطبق، يلتقط نفس الصورة. الأوائل صنعوا معرفة، والجدد يشترون وهماً غالياً اسمه المكانة. الرحلة تحولت إلى تذكرة اجتماعية، لا أكثر.

والحال أن ما يُسمى سفرًا لم يعد سوى حج بلا كعبة: رزنامة مكررة بتغييرات لا تُذكر، مقاعد محفوظة، صور متكررة، وبطاقات ائتمان تُرفع كالرايات. أوروبا كلها تختزل إلى مطعم أو شارع، لا للاكتشاف بل للشهادة الاجتماعية. هناك من يبحث عن مكانة، من يبحث عن علاقة، من يبحث

عن زوجة. الجميع يطوفون حول الطاولة ذاتها، بخشوع يليق بمقدس عصري اسمه البرستيج.
وللمفارقة الكبرى، يكفي أن يقرر أحدهم يوماً بلا تصـوير، بلا رزنامـة، بلا طقـس، ليكتشـف أن العالم أوسع من جدول مقدس... وأن السفر يبدأ فقط حين ينتهي العرض